العلاقات الرومانية المسيحية
بين
اللامبالاة والاضطهاد والاعتراف

شهدت القرون الثلاثة الأولى الميلادية من تاريخ الإمبراطورية الرومانية تطورًا فى كيانها وفى العلاقات بينها وبين المسيحية، وباستعراض تلك العلاقات التى بدأت منذ ظهور المسيحية فى القرن الأول الميلادى، فإننا نلاحظ أن ظهور المسيحية خلال الفترة الأولى من القرن الأول الميلادى قد أحدث دويًا هائلاً فى الأوساط الدينية الوثنية المختلفة[١] دون الأوساط الرسمية الرومانية، وأن هذه الديانة الجديدة قد أثارت منذ الوهلة الأولى بداية الصراع الدموى الدينى إلى مدى ما يقرب من ثلاثة قرون ذاق المسيحيون خلالها شتى ألوان العذاب والاضطهاد، برغم الدور الذى كانوا يقومون به فى كيان الإمبراطورية الرومانية المترامية.

مراحل العلاقات الرومانية المسيحية:

ولقد كان لظهور المسيحية خلال القرن الأول الميلادى ردودُ فعلٍ شديدة من قِبَلِ العناصر الدينية الوثنية المختلفة، ومن قِبَلِ أتباع الديانة اليهودية، فى حين أن الإمبراطورية قابلت هذا الحدث بالفتور واللامبالاة، واعتبرت هذه الديانة بمثابة ديانة جديدة مثل باقى الديانات الأخرى العديدة القائمة[٢].

---

(١) عن تلك الأحداث (راجع):

Clay (M), La Religion Romaine (V. 2, No. 168), Paris, 1971.

(٢) يقصد بالديانات العديدة القائمة (الديانات الوثنية) وكانت كثيرة، منها ما هو قديم أو مقتبس من الديانات الأخرى (كالإغريقية) ـ هذا إلى جانب ما استحدث من ديانات شعبية رومانية، مثل تأليه الأباطرة بعد مماتهم، وخلق شعائر لعبادتهم، أو عبادات عقائدية مثل عبادة «الإخوان الأرفاليين ـFratres Arvales» والتى كان من اختصاصها تقديم شعائر العبادة الزراعية ـ ثم تقديم الأضاحى الخاصة بالمناسبات، كعيد ميلاد الإمبراطور ـ راجع:

- Henzen (W), Acta Fratrum Arvalium (1974); C.I.L., VI. 2023 - 119, 32338 - 98, 37164 F. The Edition by E. Pasoli (1950) is Worlfless; Athenaeum 1946, 188 ff; Bull. Comm. Anch. IXXVIII (1961 / 2), 116 ff. =

ومن الظاهر أن الديانة المسيحية قد ابتدأت بتحسس طريقها سراً، ثم أخذت تسعى إلى الانتشار فى إطار تحفظى، خوفاً من بطش أعدائها من الوثنيين. وبرغم ذلك فإن المسيحية كانت كبش الفداء الذى كان يُذبح لمرات عديدة أمام حقد وضغينة الظالمين. وربما كان القرن الأول يعكس لنا صورة صادقة لما عاناه المسيحيون فى كثير من بقاع الإمبراطورية المختلفة، وخاصة فى روما[1]. ولا أدل على ذلك من أن الرأى العام الرومانى ومستشارى الإمبراطور «نيرون» اتهموا المسيحيين بإشعال حريق «روما الشهير»، وهو الذى راح ضحيته مضمار «ماكسيموس» «Circus Maximus» ثم حى «إيميليانوس» «Emilianus»بطرف المدينة بعد ذلك بستة أيام.

وبرغم اتهام الإمبراطور «نيرون» بإشعاله الحريق[2] ـ وبأنه كان الفاعل الحقيقى على الأقل لحريق حى «إيميليانوس»، وبأنه حث عبيده على إشعال هذا الحريق للتخلص من بعض الأحياء القذرة التى لم تنلها نيران الحريق الأول فى حى «ماكسيموس» ـ وذلك من أجل بناء مدينة جديدة على نمط حديث[3] ـ فإن الاتهام الفعلى قد تحمله المسيحيون، واعتُبِروا الصورة المحركة للاضطرابات فى جسم الإمبراطورية ـ خاصة أنه لم يوجد دليل واحد يدين الإمبراطور[4]. وتبعاً لذلك فإنه زج بالمئات فى السجون بمحاكمتهم بتهمة

= و أيضاً هناك عبادة ربات الزراعة والقمح متمثلة فى الربة الطيبة (Bona Dea) راجع: .

_ Latte, Caes, 9; Festus, 60, 1 ff. Lindsay.

وكان للتطور الفكرى العقائدى تأثيره الواضح على سكان المدن ـ وخاصة من طبقة المثقفين، الذين تأثروا بأفكارهم التقدمية الروحية، متمثلة فى الرواقية التى كانت تنادى بالمساواة والأخوة العالمية ومناهضة الظلم والطغيان، هذا إلى جانب الجذب الصوفى لكثير من سكان تلك المدن، ممثلاً فى روح التضحية للمسيح، وتطوير الأفكار الصوفية إلى درجات التعمق والانطلاق إلى آفاق ما بعد الحياة الدنيوية، تمثلت جميعاً فى فكر جديد للنظرية «الفيثاغورثية Pythagorean» راجع:

_ Cf., Cardini (M. T.) I Pitagorici (1958 -); Mullach, F. P. G., I. 485 - 509 (Pythagorum Similitudines); Hercher (R), Epistolographi, 601 (Pythagoreorum Epistolae); Frank (E), Plato und die sogenannten Pythagorer (1923); K. Von Fritz, Pythagorean Politics in Southern Italy (1940).

ـ كذلك راجع: سيد أحمد الناصرى (تاريخ الإمبراطورية الرومانية) السياسى والحضارى ـ الطبقة الثانية ١٩٨٥، ص ٩٥.

(١) Ramsay (W. M.), The Church in the Roman Empire before 170, (1906), P. 120; Last (H), J.R.S.,1937, 80 ff.

(٢) Tacitus, Annales XV, 36 - 41.

(٣) Seutonius, Nero, 31.

(٤) عن حريق روما وبداية اضطهاد المسيحيين.. راجع: سيد أحمد الناصرى ـ المرجع السابق، ص ١٦٣ وما بعدها.

الخيانة والإتيان بأفعال تتنافى مع سياسة الدولة وإثارة الاضطرابات فى أنحاء الإمبراطورية، حيث نال المسيحيون مختلف صنوف العذاب والتنكيل، مستقبلين شهدائهم بالترحيب والترانيم المسيحية المقدسة[١].

ويعتبر اتهام المسيحيين بهذه التهمة أكبر دليل على مدى ما وصلت إليه العلاقات بين المسيحيين والإمبراطورية فى بداية النصف الثانى من القرن الأول، وعلى مدى ما وصل إليه الصراع العنصرى ضد المسيحيين، وبخاصة من جانب اليهود الذين يُعزى إليهم تدبير هذا الاتهام المشين[٢]، الذى اتُّخِذَ ذريعة لبداية اضطهاد الرومان للمسيحيين.

ويتساءل «جيبون»: أى استفزاز جديد أثار سخط اللامبالاة الرفيقة القديمة، وأية بواعث جديدة دفعت بالحكام الرومان الذين لم يلقوا لَوْماً إلى كثير من الديانات التى عاشت فى سلام فى ظل حكمهم الوادع ـ دفعت بهم إلى إنزال أشد العقاب بأى فريق من رعاياهم اختاروا لأنفسهم لوناً فريداً بريئاً من العقيدة والعبادة[٣]؟ ويبدو أن السياسة الدينية القديمة لم تلبث أن اتخذت موقفاً أشد صلابة وأبعد عن التسامح لتقاوم تقدم المسيحية.

وبرغم صنوف الاضطهاد الرومانى للمسيحيين فإن ذلك قد قَوَّى من عزيمتهم على الصمود والاستشهاد، حيث سرت بين المسيحيين سياسة الحب والتقرب إلى الرب، سالكين طريق الشهادة. وبدأت مراحل الاستبشار والجهاد المسيحى لنشر الديانة باعتبارها سماوية مكملة لرسالة المسيح عليه السلام، فذهب القديس «مرقص St. Marcus» إلى الإسكندرية لنشر الديانة الجديدة، والعمل على تأسيس الكنيسة المرقسية فى الإسكندرية لتكون أولى نقاط الارتكاز للديانة المسيحية فى الشرق، فى حين توجه القديسان «بطرس - Peter» و «بولس - Plus» لنشر الديانة الجديدة فى روما[٤].

(١) كان من عوامل الاستسلام باتهام المسيحيين بإشعال حريق روما ـ عدم دفاعهم عن أنفسهم لاعتقادهم بأن يوم القيامة قد حل، وأن انتقام الرب خير مدافع لهم ـ راجع:

- Smallwood (E. M.), Journal of the Theological Studies, 1959, pp. 329 ff.

(٢) Cf., Josephus, Antiqu. Jud., X, 189 - 196..

(٣) جيبون (ادوارد) ـ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ـ ترجمة محمد على أبو درة، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٤) من المرجح أنهما هلكا أثناء حركة الاضطهاد الأولى «فترة حكم الإمبراطور نيرون»، راجع:

Cf., Ramsay (W. M.), op. cit., pp. 121 ff.

ولاشك أن تلك الأحداث التى وقعت خلال القرن الأول الميلادى من اضطرابات واضطهاد للمسيحيين، قد عمت جميع أنحاء الإمبراطورية، حيث أن اعتناق المسيحية اعتُبر وصمة عار مقترنة بالخيانة. وكان من شأن ذلك بطبيعة الحال زيادة حدة التوتر بين العناصر الأجنبية المختلفة فى جميع ولايات الإمبراطورية، فقد استغلت تلك الديانة الشهيدة لتكون قناعاً لكل صور التذمر والخيانة والاضطرابات المختلفة[1]، هذا إلى جانب ما شهده القرن الثانى من استغلال المسيحية تحت ستار الخيانة والأطماع الشخصية وتدبير المكائد، بحيث أصبحت الوشاية صورة ظاهرة للانتقامات والمؤامرات الشخصية خلال تلك الفترة، مما اضطر الديانة المسيحية إلى الانكماش والنشاط السرى.

ويبدو أن القرن الثانى الميلادى قد ظهرت فيه ملامح الانتشار المسيحى وسط ما عُرف بسياسة الاستقرار والتسامح لعصر الأباطرة الصالحين: (٩٦ - ١٩٢م)[2]، وبخاصة موقف الإمبراطور (ماركوس أوريليوس - Marcus Aurelius) عام ١٦١م، وسياسة التسامح التى اتبعها، حتى أنه شُبِّهَ فى نظر البعض بالسيد المسيح فى أخلاقياته وحُبه للخير والسلام ـ وذلك برغم من أنه لم يكن مسيحيًا ـ إلا أنه كان قد قرأ كل ما كتب عن السيد المسيح وأتباعه الحواريين ومعالم المسيحية ـ حتى أن البعض قد تشكك فى وثنيته. أما المسيحيون نفقد استبشروا خيرًا ولاحت لهم بشائر الأمل فى مرحلة جديدة من التسامح والاستقرار الدينى خلال حكم هذا الإمبراطور[3].

(١) لا أدل على ذلك من ثورة اليهود الكبرى التى اندلعت فى (قورينة Cyrene) عام١١٥م وانتشرت إلى باقى المناطق المجاورة فى مصر وفلسطين وقبرص وحتى حدود بلاد ما بين الرافدين ـ وذلك بسبب ما ادعاه أحد زعماء اليهود ويدعى (شمعون باركوخيا) بأنه المسيح المنتظر، جاء ليخلص اليهود من براثن الوثنية الرومانية ـ راجع: سيد احمد الناصرى (المرجع السابق) ـ ص ٢٤٥، كذلك راجع: عبد اللطيف احمد على (مصر والامبراطورية الرومانية) ـ فى ضوء الأوراق البردية ـ القاهرة ١٩٧٤ ـ ص ١٨٥ وما بعدها ـ كذلك:

- OXF. Cl. Dict., p. 505.

- Préaux (C), Chron. d'Eg., 14 (1939), pp. 180 ff; Tcherikover (V), The Jews in Egypt in the Hellenistic Roman Age in the Light of the Papyri. Jerusalem, 1945, pp. 18 ff.

(٢) يقصد بذلك العصر عهد الامبراطور (١) «نرفا ٩٦ ـ ٩٨م» (٢) «ترايانوس ٩٨ ـ ١١٧م» (٣) «هادريانوس ١١٧ ـ ١٣٨م» (٤) «أنطونينوس ١٣٩ ـ ١٦١م» (٥) الحكم المزدوج بين «ماركوس أوريليوس ولوكوس فيروس ١١٦ ـ ١٨٠م»، (٦) «كومودوس ١٨٠ ـ ١٩٢م».

(٣) Parain (C), Marc- Aurele, 1957; Birley (A), Marcus Aurelius, 1966; Piganial (A), Hist. de Rome 1962, 307 f, 581 f.

=

ومن الظاهر أن المسيحية قد استغلت فترة الاسقرار المؤقت هذه وبدأت تعمل على تقوية مركزها بين العناصر والشخصيات المهمة فى جسم الإمبراطورية، ذلك أن عمليات اعتناق المسيحية قد امتدت لتشمل الكثير من الأسر المختلفة العريقة، سواء بشكل معلن أو بشكل سرى بين أفرادها، وأن كثيراً من الشخصيات البارزة قد مالَت إلى تعاليم المسيحية بشكل أصبح ينعكش على حياتها العامة، مستغلة وضعها الإجتماعى والإدارى فى وضع ركائز الديانة المسيحية فى إطارها الجديد المسيطر(١).

وبلغ مدى تصاعد الأحداث إبان القرن الثالث حداً يكاد يصعب معه تصور مدى الاضطهادات والمظالم التى نزلت بمعتنقى هذه الديانة بعد ازدياد عددهم، ذلك أن صنوف الاتهام والوشاية قد سلكت طريقها بين صفوف المتنافسين كنوع من صنوف الصراع، وكان من جراء ذلك أن تنوعت أشكال سياسة الإرهاب، ومع ذلك فإنه فى حالة ما إذا تناهى إلى سمع أجد الحكام الرومان ان شخصاً فى نطاق ولايته قد انضم إلى الطائفة المسيحية، وأبلغت التهمة إلى المتهم للاستعداد للدفاع عن نفسه، ساوره شىء من الشك فى تجلُّده، فإنه كانت تُهيأ له هذه الفرصة للإبقاء على حياته بالهرب واللجوء إلى مكان مجهول، أوولاية نائية، لحين عودة الهدوء والطمأنينة، مما يدل على مدى هذا الصراع بين جوانب الإمبراطورية(٢).

ولقد تطورت صور الإرهاب عن طريق شهادات الإقرارات التى كانت تصدر من حكام الولايات، والتى كانت تنص على أن الشخص المذكور قد امتثل إلى قوانين الإمبراطورية، وأنه قدَّم القرابين إلى الآلهة (الوثنية) الرومانية، وإزاء أهمية هذه الشهادات وكيفية إصدارها، فكثيراً ما تاجر الحكام بها، وارتضوا بيع هذه الشهادات، مخالفين لعقائدهم بقدر اتساع دائرة جشعهم، ولا أدل على ذلك من توافر مثل هذه الإقرارات الزائفة لدى المسيحيين الأثرياء اللَّبِقين، الذين تمكنوا من أن يوفقوا بشكل ما بين سلامتهم وديانتهم(٣).

= - وهناك من عارض سياسة الإمبراطور «ماركوس أوريليوس» فى التسامح والخير والسلام واتهمه بأنه أحد عوامل انهيار الإمبراطورية (راجع)»:

-Ferrero (G), La Ruine de la Civilization Antique, Paris 1921, pp. 62 ff.

(١) عرف البعض تلك الحركة باسم «نمو حكومة الكنيسة» - راجع «جيبون» - المرجع السابق - جـ١. ص٢٦٧ وما بعدها.

(٢) راجع ما ورد عن «يوسابيوس القيصرى» تاريخ الكنيسة - ترجمة: القمص داود - الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٧٩) - ص ٣٥٣ وما بعدها.

(٣) جيبون (المرجع السابق) جـ١، ص ٤٤٨ وما بعدها.

وإزاء صور الاضطهاد المختلفة ظهرت أعداد كبيرة من المسيحيين المرتدين، الذين أنكروا ولفظوا صراحة وعلناً العقيدة التى سبق اعتناقهم إياها ـ وأكدوا إخلاصهم فى ارتدادهم، فى حين أن أقوياء العزيمة استمسكوا بعقيدتهم راضين صنوف وألوان العذاب المختلفة[١]. ومما يجدر بالملاحظة أن قواعد اتهام المسيحيين وعقابهم فى مثل هذه الحكومة الاستبدادية المترامية كان يتوقف على مدى سلوك المسيحيين أنفسهم من ناحية وعلى مزاج وطبيعة الحاكم أو الوالى ومزاج مَرْءُوسيه من ناحية أخرى، هذا إلى جانب بعض الدوافع الخفية لحكام الولايات المختلفة، فقد كانوا يجنحون إما إلى تنفيذ اللوائح والقوانين أو إلى التراخى والعدول عن تطبيقها استجابة إلى المقاصد الخفية للإمبراطور دون القوانين العامة وتطبيقها، حيث إنَّ نظرة من الإمبراطور كانت تكفى لإشعال نار الاضطهاد أو إخمادها[٢].

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على أوضاع الإمبراطورية الرومانية فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى، وخاصة قبل توليه «دقلديانوس» للحكم، فإننا نلاحظ أن المسيحية قد انتشرت، بحيث أنها كانت تسيطر على معظم طبقات المجتمع، تنوآن الكنيسة الرومانية بصفة خاصة قد ازدهرت وأصبحت تضم معظم فئات الشعب المختلفة من المثقفين والأدباء والمفكرين، وقد واكب ازدياد أعداد المسيحيين الملحوظ خلال تلك الفترة أن الكنيسة أصبحت تنهج نهجاً جديداً تمثل فى المشاركة والسيطرة، لتؤدى دوراً مهمّا فى صفوف المجتمع، بدرجة أقلقت بال الإمبراطورية ـ وخاصة أن نظرة الدولة للمسيحيين كانت نظرة تشوبها الخيانة لخروجهم على عبادة الدولة، وامتناعهم عن تقديم مراسم تكريم الإمبراطور، وحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور رمز الدولة (الإمبراطورية)، وإزاء ذلك اعتبرت الدولة المسيحيين أعداءً للإمبراطورية، وألقت عليهم تبعة التدهور والانهيار الذى اجتاح الدولة نتيجة لإهمال آلهة روما القديمة[٣].

وقد كان من طبيعة الأوضاع فى الإمبراطورية عندئذ ألاَّ يزداد انتشار المسيحية دون أن تنكبَّ الاضطهادات على المسيحية، وبخاصة فى فترة حكم (ماكسيمينوس تراكس

(١) Frend (W. H. C.), Martyrdom and Persecution in the early church, London 1965, pp. 18 ff.

(٢) جيبون (المرجع السابق) جـ١، ص٤٥١.

(٣) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص٣٨٦، كذلك عنه:

La Declin du monde antique 284 - 610 A. D., Tradwit par A. Sevandoni Duparac (Histoire de L'europe, 1), Paris 1970, pp. 12 ff.

- (Maximinus) (٢٣٥ ـ ٢٣٨م) الذى صب جام غضبه على العقيدة الجديدة، سواء فى روما أو فى فلسطين، إلى أن توفى فى عام ٢٣٨[١].

وقد بدأت المسيحية تتنفس الصعداء مرة أخرى فى عهد الإمبراطور «جورديان الثالث Gordian» (٢٣٨ ـ ٢٤٤م)[٢] عندما اتبعت تلك السياسة الحكيمة التى تمثلت فى حرية العقيدة للجميع[٣]. وقد بقى الوضع على ماهو عليه حتى حكم فيليب العربى (Philippus) (٢٤٤ ـ ٢٤٩م)[٤]، بيد أن تلك الفترة كانت بمثابة الهدوء الذى سبق العاصفة، وهى التى بدأت تظهر ملامحها منذ عهد الإمبراطور (دكيوس Dec-ius) عام (٢٤٩ ـ ٢٥١م)[٥] الذى وجد فى ارتداده إلى الوثنية نقطة الخلاص للإمبراطور من براثن أخطبوط المسيحية[٦]. وتبعاً لذلك بدأ فى تطبيق سياسة الإبادة الجماعية للمسيحيين، حيث استصدر قراره الشهير عام ٢٥٠م بإلزام جميع أفراد الشعب بتقديم القرابين والمناسك لآلهة الدولة الوثنية، وفرض عقوبة الإعدام لكل مخالف للتعليمات. وإزاء ذلك فقد ازدادت حدة الصراع والتوتر فى جسم الإمبراطورية، وبدأت ملامح الاضطهاد للمسيحية تعود إلى سابق عهدها. وربما تحقق ذلك بصورة شبه كاملة على يد الإمبراطور «فاليريانوس ـ Valerianus ـ ـ٢٥٣ ـ ٢٦٠م»[٧] الذى ضيق الخناق على المسيحيين بإصداره قرارات تعسفية اقتضت منع تجمعاتهم، وإلزامهم بتقديم القرابين للآلهة الوثنية، وإغلاق صوامعهم، ثم أصدر فى العام التالى قراره بمحاكمة رجال الدين حسب مواقعهم الكهنوتية فى حالة تمسكهم بديانتهم[٨]، وبرغم فواجع المسيحية ـ من حيث فَقْد الكثيرين من أتباعها عن طريق الرِّدة

(١) Bersanetti (G. M.), Studi Sul Imperatore Massimino il Trace, 1940; Hohl (H), Maximini duo Julii Capitolini, 1949.

(٢) Cf., Olmstead (A. T.), Classical Philology, 1942, 241 ff; Townsend (P. W.), Yale Classical Studies, 1955, 49 ff.

(٣) Townsed (P. W.), Yale Clasical Studies, 1955, 49 ff.

(٤) Olmstead (A. T), Classical Philology, 1942, 241 ff; Parsons (P. J.), Journal of Roman Studies, 1967, 134 ff.

(٥) Cf., Gross (K), Reallexikon für Antike und Christentum, Stuttgart, 3, 611 ff.

(٦) Cross (K), R. A. C., 3, 611 ff.

(٧) Walser (G) and Pekary (Th), Die Krise des Romischen Reiches, 1962, 28 ff.

(٨) Olmstead (A. T.), Classical Philology, 1942, 241 ff; 398 ff.

إلى الوثنية أو الموت فى سبيل العقيدة ـ فإنها خرجت من تلك الأزمة أقوى وأصلب عوداً على الاستمرار والنضال المقدس[١].

وبتولى الإمبراطور «جالينوس Gallienus» (٢٦٠ ـ ٢٦٨م) الحكم ـ ردَّ إلى المسيحية اعتبارها، وسمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم ومعتقداتهم الدينية. وبذلك بدأت مرحلة عودة استقرار وهدوء وسلام إلى الكنيسة[٢]. وعرفت فترة حكم «جالينوس» بفترة التسامح الدينى مع أصحاب الديانات المختلفة.

ومن اليسير أن نتصور ما وصلت إليه أوضاع الإمبراطورية فى إطارها الداخلى والخارجى من حيث مدى التدهور والتدنى فى سياستها الداخلية والخارجية ـ ومدى ماكانت عليه سياسة حكام الولايات من حيث استغلال للظروف الطارئة لتحقيق الأطماع الشخصية ـ تلك الأطماع الشخصية التى أصبحت سمة كل مسئول أو قائد ـ مع ملاحظة أن سلطة الولاة فى الولايات كانت غير متكافئة تبعاً لأهمية كل ولاية ووضعها فى الإمبراطورية، ومدى ماوصلت إليه تطورات تلك الأحداث إلى حد الفضائح المنكرة[٣].

أما عن السياسة الدينية فى الولايات فقد كانت متروكة للولاة إلى جانب مهامهم السياسية، فمنهم من جامَلَ المسيحية وغض النظر عنها طالما أن الأمور مستقرة، ومنهم من اتخذ لنفسه نمطاً دينيّاً محدداً ومنهم من اتخذ موقفاً ضد المسيحيين، أو لم يلتفت إلى طلباتهم وتظلماتهم[٤].

---

(١) Frend (W. H. C.), op. cit.,PP. 177 ff.

(٢) Walser (G) and Pekary (th), Die Krise des Romischen Reiches, 1962, 28 ff.

ـ راجع / سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق)، ص ٣٦٥ وما بعدها ـ حيث يقدم عرضاً تحليليّاً متكاملاً عن تلك الفترة.

(٣) راجع (عبد اللطيف أحمد على) ـ المرجع السابق ـ «فضيحة مكسيموس وسلطات الوالى» ـ ص١٦٨ وما بعدها ـ كإحدى صور التدهور الإدارى فى فترة من فترات حكم الأباطرة فى الإمبراطورية الرومانية.

(٤) لا أدل على ذلك من اعتناق «أوريليانوس- Aurelianus » (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) رب الشمس السورى «إيلاجابالوس - Elagabalus» لاعتقاده بأنه الرب الذى لا يُقهر (Sol Invictus) وهو الذى نصره على تدمر ـ ولهذا أوحى إلى الناس أنه الرب الحامى للإمبراطورية، راجع:

سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق)، ص ٣٨٢. وكذلك عنه راجع:

- Cf., Theodore Optendrenk: Die Religionpolititk des Kaisers Elgabal in Spiegel der Historia Augusta, diss, Bonn 1968.

وراجع: «ورن هولستر» أوروبا فى العصور الوسطى ـ ترجمة ؟ محمد فتحى الشاعر ـ القاهرة ١٩٨٨ ص ٣٢ وما بعدها.

وبتولى الإمبراطور «دقلديانوس» (Diocletianus) الحكم ٢٨٥م، وَضَعَ نقاط سياسته الحكيمة القائمة على روح التسامح الدينى بشكل أكثر اعتدالاً وتحرراً، بحيث تابعت المسيحية مسارها فى هدوء وطمأنينة ـ حتى أن كبار موظفى الدولة الذين اعتنقوا المسيحية قد باشروا ممارسة ديانتهم فى حرية وسلام، وكان للأساقفة منزلة كبيرة فى سائر الولايات، لا من قبل الشعب وحده، بل أيضاً من الحكام أنفسهم(١).

ويبدو أن سياسة التحرر هذه قد استغلت بشكل سئ من قبل المسيحيين أنفسهم وأصبح سوء السلوك وفساد المبادئ ظاهرة وبرهاناً على الحرية التى يتمتع بها المسيحيون وأساءوا استغلالها فى عصر دقلديانوس.

صراعات السلطة وتطور العلاقات الرومانية المسيحية:

ولا أشك أن الفترة الأخيرة من النصف الثانى من القرن الثالث شهدت أعنف مراحل الصراع الدموى بين المتصارعين على السلطة، وأن فلول الصراع قد شوهت ملامح ومقومات الإمبراطورية بالصورة التى كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً وشاملاً ـ وذلك ما أمكن «دقلديانوس» استدراكه عن طريق إصلاحاته فيما بعد.

وقد عرفت تلك الفترة بفترة القلاقل القيادية مسبقاً، وخاصة بعد مقتل الإمبراطور (أوريليان - Aurelianus) عام ٢٧٥م(٢). وتدخل السناتو، واستخدام سلطته، وانتخب (كلوديوس تاكيتوس - Claudius Tacitus)(٣)، وارتضاه الجيش، وقاد حملة موفقة ضد (الآلان - Alans)(٤)، بيد أنه دبرت له مؤامرة أنهت فترة حكمه القصيرة (٢٧٥ ـ ٢٧٦م)(٥).

ثم انتخب الجيش بعد مقتله (م. أوريليوس بروبوس - Aurelius Probus) ـ (٢٧٦ ـ ٢٨٢م)(٦)، الذى أحرز انتصارات فى الراين والدانوب، بعد أن طهر آسيا الصغرى من

(١) Cf., Stade (K), Der Politiker Diokletian und die letzt grobe christenverfolgung 1926.

(٢) Homo (L), Essai sur le regne de L' empereur Aurélian, 1904; Gross (K), R. A. C., I. 104 ff.

(٣) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٣٧٦ وما بعدها.

(٤) قبيلة من المتبربرين الرحل، استقروا فى جنوب شرقى روسيا فى القرون الثلاثة الميلادية الأولى. (راجع):

- Oxford Classical Dictionary, p. 33.

(٥) Vogt (J), The Decline of Rome (1967), pp. 113 ff.

(٦) Vitucci (G), L'imperatore Probo, 1952.

قُطّاع الطرق، ومصر والسودان من قبائل البشارية .(Blemmyes)، إلى أن دبر له رجال من قواته مؤامرة لاغتياله فى «سيرميوم - Sirmium» دون أن يدروا أنهم اغتالوا واحداً من أعظم القادة كفاءة وإخلاصاً للإمبراطورية، فى وقت كانت هى فى أشد الحاجة إليه[١].

وكان لرغبة القوات فى «رايتيا - Rhaetia» أثرها فى ترشيح قائد الحرس البرايتورى «ماركوس أوريليوس كاروس - M. Aurelius Carus» إمبراطوراً عام ٢٨٢م[٢]ـ وقد أشرك معه ولديه «كارينوس - Carinus»[٣] و «نومريانوس Numerianus» بوصفهما نائبين عنه مساعدين له بدرجة قيصر، وتمكن «كاروس» بمساعدة ابنه «نومريانوس» من فتح الشرق، حيث استطاع عام ٢٨٣م هزيمة قبائل «القادى - Quadi»، وقبائل «الصرب - Sarmatians» عند الدانوب Danube، ثم عبر الفرات قاصداً سحق الفُرس، حيث استولى على «سلوقيه - Seleucia»، وبعد ذلك «كتيسيفون - Ctesiphon» إلا أنه قُتل فى ظروف غامضة ومفاجئة، وإن كان من المرجح أن يكون قد قتله قائد الحرس البرايتورى «آريوس آبر - Arrius Aper» وهو نفس الشخصية التى اتهمت بقتل ابنه «نومريانوس» بعد ذلك[٤]، وفى ضوء الصراعات الدموية على السلطة اجتمع مجلس القادة وانتخبوا قائد الحرس الخاص للإمبراطور الراحل «ديوكليس - Diocles» المعروف باسم «دقلديانوس Di- - ocletianus»[٥] وهو الذى تولى بنفسه إعدام قائد الحرس البرايتورى «آريوس آبر Arrius - Aper»، وقد أكمل «دقلديانوس» مشواره فى الصراع، حيث تقابل مع خصمه «كارينوس - Carinus» ابن الإمبراطور السابق عند سهل مارجوس ـ Margus» (موراقيا) فى معركة رهيبة كاد «كارينوس» أن ينتصر فيها لولا اغتياله بخنجر مسموم صنعه أحد الترابنة الذى اغتصب «كارينوس» زوجته، وتبعاً لذلك قبلت قواته «دقلديانوس» إمبراطوراً ٢٨٥م[٦].

---

(١) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥. .

(٢) Johes (T. B.), C. PHil., 1942, pp. 193 ff; Meloni (p), II regno di caro, 1948, pp. 106 ff..

(٣) Ensslin (W), P. W., s. v., Valerius (142), 2424 f.

(٤) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص ٣٨٥.

(٥) Costa (C), Ruggiero Di Zionario Epigrafico di Antichita Romana, 1886, II, 1793 ff.

(٦) Jones (A.H.M.), Martindale (J), and Morris (J), The Prosopography of the Later Roman Empire, Col. I (A.D. 260 - 385). Cambridge University, Press 1971, pp. 37 ff.

ـ كذلك راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٣٨٦، كذلك راجع:

- Ensslin (W), Zur Ostpolitik des Kaisers Diokletian, 1942.

السلطة الرباعية وأثرها فى متغيرات العلاقات الرومانية المسيحية:

ولقد أدرك «دقلديانوس» مدى الأخطار التى تلاحق كيان الإمبراطورية داخلياً وخارجياً، وأن سلطة الإمبراطور غير كافية لحماية الإمبراطورية دون مساعدة من المساعدين والقواد وحكام الولايات. وأن شئون الإمبراطورية تستوجب أن يكون هناك نائب للإمبراطور يتولى مسئولية الدفاع عن الولايات الغربية حتى يتفرغ الإمبراطور لحماية الجبهة الشرقية.

ولهذا كان اختياره لأقرب الناس إليه ورفيقه فى السلاح - وهو «ماكسيميانوس ـ Maximianus»[١] الذى رقاه إلى مرتبة «قيصر ـ Caesar» ثم إلى مرتبة «أغسطس» فى عام ٢٨٦م تكريماً له على إنجازاته فى استتباب الأمن فى المنطقة الغربية بعد أن سحق الثورة فى منطقة الغال، وطارد الألمان حتى حدود الإمبراطورية شرقى الراين. وعندما أدرك «دقلديانوس» مدى النتائج الإيجابية التى حققها مع نائبه فى المجال السياسى والعسكرى ـ ثمرة نظام توزيع المسئولية ـ قرر عام ٢٩٣م توزيع السلطة الإمبراطورية على أربعة أشخاص، وهو ما عرف بالنظام المسمى بالسلطة الرباعية (Tetrarchia)، وذلك بتعيين نائب له، ونائب لشريكه «ماكسيميانوس»، وهذان النائبان كانا بمرتبة قيصر أو ولى العهد[٢]. وبناء على ذلك فقد اختار «دقلديانوس» نائبه، وكان فلاحاً الليرياً جاء من تحت السلاح، وهو «جايوس جاليروس ـ Gaius Galerius»[٣] الذى كان على دراية تامة بالشئون العسكرية والاستراتيجية. وكذلك اختار «ماكسيميانوس» نائبه فلاحاً الليرياً ترقى تحت السلاح وهو «قنسطنطيوس ـ Constantius» المشهور باسم «خلوروس ـ Chlorus» أى ذى «الوجه الشاحب»[٤].

وبذلك قسمت إدارة الإمبراطورية بين الأقطاب الأربعة، وأصبح لكل منهم منطقته التى يديرها من خلال إدارته الموجودة فى عاصمته ـ حيث أوكل إلى «ماكسيميانوس» حماية المناطق الشمالية متخذاً من «ميلانو» عاصمة له، فى حين أوكل إلى «قنسطنطيوس» ولاية بلاد الغال وبريطانيا، متخذاً من مدينة «تريفيس ـ Treves» عاصمة له، أما

(١) Sutherland, (C.H.V), R.I.C., VI., 15 ff.

(٢) Seston (W), la Tetrachie, 1946, pp. 69 ff.

(٣) Sutherland, (C.H.V), R.I.C., VI., 15 ff.

(٤) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٠٢ وما بعدها.

«جاليريوس» فقد أشرف على منطقة البلقان وآسيا الصغرى، متخذًا من مدينة صيرميوم ـ Sirmium» عاصمة له، فى حين تولى «دقلديانوس» حماية المقاطعات الشرقية، وجعل من مدينة «نيقوميديا ـ Nicomedia» المواجهة لمدينة بيزنطة عاصمة له[١]. ومما يجدر بالملاحظة أن القوانين والقرارات كانت تصدر باسم الأقطاب الأربعة، وكانت ملزمة وتحترم من الجميع، مع احتفاظ كل منهم بشخصيته الفردية المطلقة وأنه برغم تطبيق سياسة «اللامركزية ـ decentralization» فقد بقيت الإمبراطورية متحدة فى إطار حدودها وقوتها العسكرية[٢].

ولقد انكب كل طرف من الأقطاب الأربعة على إثبات قدرته على تأمين حدوده، والحفاظ على كيان ووحدة الإمبراطورية، حيث استطاع «جاليرويوس ـ Galerius» خلال الفترة من ٢٩٤ ـ ٢٩٧ م القيام بحملات دفاعية ضد القوط والصرماتيين (Sarmatians) فى منطقة الدانوب، مع بناء الحصون والقلاع، واستصلاح الأراضى وتوزيعها على المستوطنين الجدد[٣].

أما «قنسطنطيوس ـ Constantius» فقد قام بعمليات عسكرية ضد «كاراوسيوس ـ Carausius»[٤] فى بحر الشمال وهزمه، واستولى على بولونيا، وطرد الفرنجة والجرمان من المناطق المطلة على بحر الشمال. وقد ترتب على اغتيال «كاراوسيوس» فى عام ٢٩٣ م تخلص الإمبراطورية من مشاكله إلى الأبد[٥]. وفى عام ٢٩٦ م غزا «قنسطنطيوس» بريطانيا وأعاد السيطرة الرومانية عليها من الجنوب إلى الشمال ـ حتى حائط هادريانوس ـ ثم أعاد مقر قيادته فى دمينة «تريفيس Treves» بعد أن قام بتجمليها لتصبح من أهم مدن الإمبراطورية فى الغرب[٦].

(١) راجع سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤ - ٤.

(٢) Cf., Seston (W), La Tetrarchie, 1946, pp. 72 ff.

(٣) Cf., Sutherland (C.H.V), R.I.C., VI, 15 ff.

(٤) قائد بحرى ألمانى أوكل إليه «ماكسيميانوس» قيادة قاعدة بحرية فى بولونيا - إلا أنه وسع نفوذه إلى بريطانيا، وأعلن نفسه إمبراطوراً «أغسطس» منفصلاً عن الإمبراطورية الرومانية. راجع:

- Cf., Webb (P.H) Reign and Coins of Carausius, 1906; Colingwood - Myres, Roman Britain 2, 276 ff; Seston (W), op. cit., pp. 69 ff.

(٥) Cf., Sutherland, (C.H.V), in Roman Britain, 1937. 62 ff; R.A.G. Carson, Journ. Brit. Arch. Assoc., 3, pp. 33 ff; Frere, Britannia, 335 ff.

(٦) Cf., Piganiol (A), L' Empereur Consrantin, 1932, 13 ff.

أما عن إنجازات «دقلديانوس» فقد كانت وساماً على صدر الإمبراطورية الرومانية، حيث شملت مناطق عديدة وكبيرة من شرق الإمبراطورية، حيث أخْمَدَ كثيراً من الثورات، ومنها الثورة القومية فى الإسكندرية عام ٢٩٧ م التى تزعمها «أخيليوس ـ Achilleus» و«لوكيوس دوميتيوس دوميتيانوس ـ Lucius Domitius Domitianus»، والتى كانت قد اندلعت نتيجة للسياسة الاقتصادية المجحفة التى أقرها، والتى تمثلت فى الغلاء الفاحش، والضرائب التعسفية. هذا بالإضافة إلى أن «دقلديانوس» قد قضى أيضاً على الثورة الاجتماعية التى عُرِفَت باسم الثورة «المانيخية Manchaean»[(١)]، والتى كان المسيحيون قد شاركوا فيها مثلما شاركوا فى الثورة الأولى ـ ـ فقد اقتضت من «دقلديانوس ـ Diocletianus» محاصرة المدينة ثمانية أشهر قبل أن يفلح فى إخماد الثورة، فإن ذلك حفزه على إنزال أشد صنوف العذاب بالمسيحيين، فقد كانت المذابح التى أنزلها بهم «دقلديانوس» أشد فتكاً من كل ما صادفوه قبلاً من مذابح، مما جعل الكنيسة القبطية تتخذ بداية لتقويمها عام ٢٨٤ م، وهو العام الذى تولى فيه «دقلديانوس» حكم الإمبراطورية الرومانية ويُسمى هذا التقويم «تقويم الشهداء». ولعل شعور هذا الإمبراطور بالذنب لفرط قسوته هو الذى حفزه على توزيع منح من القمح على السكندريين، مما دَفَعَ والى مصر «بوستوس» على أن يقيم له نصباً تذكارياً اعترافاً بجميله على المدينة، وهو عبارة عن عمود ضخم يقف على الربوة المجاورة للسيرابيوم بمنطقة الحى الوطنى. وكذلك أمَّنَ «دقلديانوس» حدود مصر الجنوبية من هجمات القبائل «البشارية ـ Blemmyes» حيث وطَّنَ إحدى القبائل الموالية للرومان فى الأراضى الواقعة جنوب الشلال الأول لكى تتولى صد أى هجوم خارجى[(٢)].

كما كانت لانتصارات «دقلديانوس» شرقاً على الفُرس أكبر الأثر فى استتباب أمن وسلام الإمبراطور، فقد استدعى «دقديانوس» مساعده «جاليريوس» لرد خطر الغزو

---

(١) عرفت بهذا الاسم نسبة إلى المبشر «مانى ـMani» الذى ظهر فى (بارثيا) وبشر بالصراع بين الشعب والحاكم الظالم، وقد وصلت دعوته إلى مناطق كثيرة، ومنها مصر. راجع: سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص ٤٠٦، ٤٠٧ ـ كذلك ارجع إلى:

- H.C. Puech, Le Manicheine, 1949; Wildengren (G), Mani und der Manichaismus (1961, E.T. 1965) Bibliography. C.A.H., XII, 773 ff.

(٢) عن زيارة دقلديانوس للإسكندرية (راجع):

- Cf., La revolte de Domitius Domitianus et le voyage en Egypte de Diocletion d'apres li temoignage des papyrus et des Ostraka, Revue des Etuds Grecques, 97, 1966. pp. IX, X.

الفارسي الذى قام به ملك الفرس «نارسيس ـNarses» مستغلاً انشغال «دقلديانوس» فى إخماد ثورة الإسكندرية ـ وقام بغزو أرمينيا وسورية. وبرغم هزيمة «جاليريوس» الأولى فى «كالينكيوم ـ Calinicium» عام ٢٨٧ م فإنه حقق النصر بعد ذلك بعد أن استعاد قوته عام ٢٩٨ م، فهاجم أرمينيا ـ ودخل «كتيسيفون ـ Ctesiphon» وأَسَرَ الأُسرة الملكية، مما أرغم الفُرس على عقد الصلح. وبذلك استردت روما ولاية ما بين النهرين، ومملكة «أرمينيا»، والطريق البرى بين سوريا حتى الخليج الفارسى، مع إلزام الملك الفارسى على أن يدفع التجار الضرائب والمكوس الخارجية لروما عند قلعة «نيسيبس ـ Nisilis» قرب نهر دجلة، مما دعم انتصار روما الساحق على الفرس الذين لم يَجْرُءُوا على تحدى روما لأكثر من خمسين عاماً قادمة[١].

وهكذا حققت السلطة الرباعية التى وضع قواعدها «دقلديانوس» أكبر استقرار لأمن وسلامة الإمبراطورية على مر تاريخها الطويل.

نقطة التحول ضد المسيحية:

كان لإنجازات السلطة الرباعية أكبر الأثر فى انتعاش الوضع العام داخل الإمبراطورية الرومانية، وخاصة بعد الإصلاحات الدستورية التى وضع أصولها «دقلديانوس» فى الناحية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية[٢]. وقد شعر كل مسئول رومانى وفرد بمدى الدور الإيجابى الذى شارك به كل منهم فى إرساء دعائم الإصلاح فى الإمبراطورية.

وأمام ذلك قد أحس الرومان بسلبية المسيحيين وانطوائهم وعدم تعاونهم فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإمبراطورية، وأنه كان من الواجب أن يرد المسيحيون الجميل بعد أن أخذوا حريتهم فى العبادة واستظلوا بمظلة التسامح خلال هذه الفترة. وتبعاً لذلك هاجمهم بشدة المتطرفون الوثنيون منتهزين هذه الفرصة لإظهارهم بمظهر الخارجين على الإجماع الوطنى، والمنشقين عن التراث الوطنى القديم فى سبيل عقيدة جديدة وافدة من الشرق[٣]. وكان لذلك الوضع أكبر الأثر فى تغيير شخصية ونفسية «دقلديانوس» ضد

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٠٧، ص ٤٠٨.
(٢) راجع: إصلاحات دقلديانوس ـ سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق) ص ٤٠٨ وما بعدها ـ حيث لم نعرض لها حفاظاً على مضمون البحث من الناحية الشكلية والموضوعية.
(٣) Jones (A.H.M), The Decline of Ancient Rome, Longmans 1966, pp. 89 ff.

المسيحيين، وخاصة بعد تلك السياسة التسامحية التى منحهم إياها فى بداية عهده، وبعد أن اتخذ المسيحيون وضعهم فى سلك الجيش الإمبراطورى وداخل الدولة، وتسللوا داخل القصر الإمبراطورى نفسه، كما أن التنظيم الدقيق الذى قامت عليه الكنيسة جعل من الشعب المسيحى دولة داخل الدولة[(١)].

وقد وجه المفكر المسيحى «لاكتانتيوس - Lactantius»[(٢)] وكان يقيم فى قصر «دقلديانوس» فى نقوميديا ويشرف على تربية الأمير «قنسطنطينوس» ابن «قنسطنطيوس» نائب الإمبراطور فى الغرب - أصابع الاتهام إلى «جاليريوس - Galerianus» نائب «دقلديانوس» فى الشرق، وألد أعداء المسيحية، وإلى «هيروقليس - Hierocles» حاكم ولاية بيثينيا وصاحب الرسالة المشهورة القائمة على منطق الأفلاطونية الجديدة، والتى بعث بها إلى «دقلديانوس» طالباً منه الشروع فى تصفية المسيحية[(٣)].

وتطورت مراحل الاضطهاد من قِبَلِ «دقلديانوس» ضد المسيحيين إلى تصفيتهم، ذلك انه أصدر أمراً يلزم الجنود والضباط فى الجيش الإمبراطورى بتقديم القرابين والأضاحى لآلهة الإمبراطورية القديمة، وجعل عقوبة الطرد من الخدمة لكل من يرفض تطبيق الاوامر. وأعقب ذلك بإصدار قرار إمبراطورى «Edict» بتصفية الكنائس المسيحية وتدميرها، وإحراق الأناجيل، وتحريم الصلاة فى الكنائس أو القيام بأية شعائر مسيحية، كما الغى قرارًا سابقاً كان قد سمح للمسيحيين بالدفاع عن أنفسهم أمام المحاكم والقضاء الرومانى.

وفى عام ٣٠٣ م هاجم الحرس الإمبراطورى الكنيسة الصغيرة المواجهة للقصر الإمبراطورى فى نيقوميديا وأشعل النيران بها، وقام بتعذيب وإحراق كل معترض على قرارات الإمبراطور، وعندما تصادف إذ ذاك نشوب حريق مرتين بالقصر الإمبراطورى على مدى اسبوعين وُجهت فيه أصابع الاتهام إلى المسيحيين كرد فعل أمام تطور الأحداث ضدهم، فتم القبض على عدد كبير منهم، وسجنهم وتعذيبهم حتى الموت[(٤)].

---

(١) Glover (T.R.) The Conflict of Teligions in the early Roman Empire, London 1920, pp. 33 ff.

(٢) Brandt (S), and Laubmann (G), Corpos scriptions Ecclesiasticorum Latinorum, 1866 X, XIX, XXVII; Moreau (J), De la Mort des Persécteurs, sources chretiennes, 39 (1956); Blakeney (E.H.), Epitome, 1950, p. 122 f.

(٣) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢.

(٤) جيبون (المرجع السابق) ص ٤٦٧ وما بعدها.

كما اندلعت بعض الثورات في سوريا «وكابادوكيا» وكان المسيحيون هم كبش الفداء، حيث وُجهت إليهم أصابع الاتهام ـ وجاء رد فعل «دقلديانوس» في منتهى القسوة، حيث أمر بالقبض على القساوسة والكهنة وإيداعهم السجون التي امتلأت بهم، وفي أثناء مرض «دقلديانوس» صدر قراره الثالث عام ٣٠٤ م الذي قضى بالإفراج والعفو عن المسيحيين مقابل تقديم الأضاحي للآلهة الرومانية، أو تنفيذ حكم الإعدام، وقد أرجع المسيحيون صدور هذا القرار الأخير إلى حقد «جاليريوس» ضد المسيحيين، وإن كان من المرجح أن مرد ذلك كان إلى الرغبة في إخضاع رعايا الكنيسة لسيادة الدولة المطلقة(١).

ويلاحظ أن القرارات الثلاثة التي أصدرها «دقلديانوس» ضد المسيحيين قد طُبقت في جميع ولايات الإمبراطورية بنسب متفاوتة ـ حيث طبقها «جاليريوس» بكل دقة وقسوة في الشرق، أما «قنسطنطيوس» فقد نفذ القرار الأول، في حين تباطأ في تنفيذ القرارين الأخيرين، لشعوره أن بعض الوثنيين في مصر والشرق بدءوا يتعاطفون مع المسيحيين ويساعدونهم إزاء بطش الجنود في الولاية(٢).

وكان لمرض «دقلديانوس» الشديد أكبر الأثر في اعتزاله وانكماشه عن الظهور في المناسبات الرسمية. وفي بداية شهر مارس عام ٣٠٥ م أعلن «دقلديانوس» اعتزاله في حفل تكريم كبير حضره عدد كبير من قواده في نيقوميديا. وفي نفس الوقت أعلن «ماكسيميانوس» صديق عمره في ميلان اعتزاله الحكم أيضاً وفاءً لعهد قطعه على نفسه أمام «دقلديانوس» أن يترك الحكم معه في وقت واحد. حتى يعطيا الفرصة للآخرين، تطبيقاً للنظام الذي وضعاه، فقام «دقلديانوس» بتعيين «قنسطنطيوس» ـ خلفاً لماكسيميانوس في الغرب ـ مشرفاً على ولايات بلاد الغال، وبريطانيا، وأسبانيا، كما عين «جاليريوس» خلفاً له في الشرق مشرفاً على منطقة البلقان وآسيا الصغرى. وقد اختار «جاليريوس» ابن شقيقته، ويدعى «ماكسيمينوس دايا ـ Maximianus Daia» نائباً له بمرتبة قيصر لحكم الشرق، وأن يوكل إليه ولايات آسيا الصغرى وسوريا ومصر(٣). أما «قنسطنطيوس» فقد أرغم على تخطي ابنه ويختار رجلاً آخر من اليريا هو «فلافيوس فاليريوس سيفيريوس ـ Flavius Valerius Severus» ليشغل منصب نائبه في الغرب، وأن

(١) Cf., Rostovtzeff., A History of the Ancient world, Vol. 2, Oxford 1953, pp. 350 ff.

(٢) سيد أحمد الناصري (المرجع السابق). ص ٤٢٣.

(٣) Cf.,Sutherland (C.H.V), R.I.C., VI 15 ff.

يوكل إليه حكم إيطاليا وإفريقيا وبانونيا. وبذلك أهمل «ماكسيتيوس ـ Maxentius» ابن ماكسيميانوس، كما أهمل مؤقتاً قنسطنطينوس ابن قنسطنطيوس[١].

الصراع من أجل الحكم والبقاء:

ويتنحى الإمبراطور «دقلديانوس» عن العرش عام ٣٠٥ م بعد بلوغه سن الستين، وتبدأ مرحلة جديدة من التوتر وعدم الاستقرار ـ لقيام الحروب الأهلية التى استمرت ما يقرب من سبع عشرة سنة ـ وبرزت خلالها شخصية قنسطنطين، الذى استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحداً بعد الآخر، وأن يعيد توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣ م[٢].

ولقد بدأت ملامح هذا الصراع بموت «قنسطنطيوس خلوروس ـ Constantius Chlurus» فجأة عام ٣٠٦ م[٣]، ومناداة قواته بابنه «قنسطنطينوس» وريثاً له دون استشارة «جاليريوس» الشريك فى حكم الإمبراطورية، والذى رضخ للأمر الواقع بتعيين «قنسطنطينوس» بمرتبة قيصر مثله مثل «ماكسيميانوس دايا» فى حين رقى «سيفيريوس» إلى درجة الامبراطور الشريك، بيد أن «ماكسنتيوس» ابن «ماكسيميانوس» الإمبراطور المعتزل أعلن أحقيته هو الآخر فى تولى العرش مثل قنسطنطينوس تماماً ـ وأعلن النضال والقتال من أجل هذا الحق، ثم استدعى أباه من عزلته فى التقاعد ليساعده، وتمكنا من إثارة إيطاليا وكسب تأييدها، وكذلك ولاية إفريقيا. ومن ثم اشتعلت جذوة الصراع الدامى على أشده بين المتنافسين من أجل الحكم والبقاء، وكثرت الحروب والانقلابات والمؤامرات والمعاهدات والتحالفات، ورفع القياصرة (النواب) السلاح فى وجه الأباطرة (وقد حدث ذلك كله وما يزال دقلديانوس على قيد الحياة فى مقر تقاعده). وفى خلال الفترة ما بين ٣٠٧ ـ ٣١١ م انحصر الصراع على السلطة بين خمسة أقطاب (١ جاليريوس (Galeruis). ٢ ـ وماكسنتيوس (Maxentius). ٣ ـ وماكسيميانوس (Maximianus). ٤ ـ وليكينيوس (Licnius) الذى حل محل سيفيروس. ٥ ـ وقنسطنطينوس(Constantinus)[٤].

---

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٣.

(٢) Vasiliev (C), Histoire de L'Empire Byzantin, Tome 1, 1932, pp. 80 ff.

(٣) Cf., Moreau (J), Jahrbuch für Antike und Christentum, II, 1959, 158 ff.

(٤) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٦.

ولقد توفى جاليريوس عام ٣١١ م صريعاً لمرض خبيث أودى بحياته، وسقط بعد ذلك «ماكسنتيوس» عام ٣١٢ م نتيجة للصراع مع قسنطنطينوس عند جسر «ميلفيا ـ Milvia» على نهر التيبر بعد هزيمة قواته على يد ليكينيوس.(١) ومما يجدر بالذكر أن «ماكسنتيوس ـ Maxentius» كان مسيحيا فى الأصل ثم ارتد إلى الوثنية بعد ذلك(٢).

ونتيجة لذلك فقد انحصر الصراع على عرش الإمبراطورية بين القائدين «قسطنطينوس» و«ليكينيوس» الذى تزوج من شقيقة الأول عام ٣٢٤ م، بيد أن ذلك لم يمنع أو يحجب أطماع كل منهما فى السيطرة والسلطة المطلقة، فكان لابد من حليف قوى يشد من أزر الفَطِن إلى ذلك. وقد أدرك «قسطنطينوس»(٣) أن يكسب التأييد المعنوى للمسيحيين ركيزة للاستقرار والسيطرة.

موقف المتصارعين من المسيحية:

وقد ظل الاضطهاد الوثنى للمسيحية قائماً بعد اعتزال دقلديانوس، واستمر يمارس بعنف فى الدوقيات التابعة لجاليريوس فى الليريكوم وتراقيا وآسيا الصغرى، كما طبقها بقسوة «ماكسيميانوس دايا» فى الدوقيات التابعة له فى مصر وسوريا ـ حيث كان «ماكسيميانوس» يصدر ضدهم الأحكام بالتمثيل والتشويه، إلى الأحكام الشاقة فى المناجم المحاجر، واستخدام صنوف التعذيب والتنكيل التى وصلت إلى حد قتل النساء والأطفال والشيوخ الذين يرفضون تقديم القرابين والأضاحى للآلهة الوثنية ويتخلون عن العقيدة المسيحية. وقد حاول ماكسيميانوس إحياء المعابد القديمة وبناء معابد كبرى جديدة للآلهة الوثنية، كما قام بإنشاء كنيسة على نفس النمط الكهنوتى الذى قامت عليه المسيحية كنوع من الخلط والطمس للكنائس المسيحية والتشبيه بها فى تنظيم وثنى.. ويبدو أن «ماكسيميانوس» كان ينفذ تعاليم «جاليروس» التعسفية ضد المسيحيين(٤). وفى عام ٣١١ م تعرض «جاليريوس» لأزمة مرضية شديدة تمثلت فى مرض خبيث وصفه المسيحيون بأنه

---

(١) Cf., Cam., Med. Hist., Vol. 1, pp. 5 - 6.

(٢) من المرجح لإرضاء الربة «روما»، راجع: سيد الناصرى (المرجع السباق) ص ٤٢٦ وكذلك:

- Cf., De Decker, La politique religieuse de Maxence, Byzantion, XXX, A III, 1968; Sutherland (C.H.V), R.I.C., VI, 15 ff.

(٣) درج بين المؤرخين على تسمية «قسطنطينوس» «قسطنطين» بعد أن تولى الحكم إمبراطوراً.

(٤) راجع: يوسابيوس القيصرى «تاريخ الكنيسة» ترجمة القمص مرقس داود ـ ص ٤٣٠ وما بعدها.

انتقام الرب ضد الظالم، ويبدو أن مرض «جاليريوس» الشديد قد أشعره بمدى الظلم الذى أوقعه على المسيحيين، وأن عمليات الاضطهاد والتنكيل أصبحت لا تجدى، بل أتت بنتائج عكسية، إذ زاد من إيمان المسيحيين بالله وبدينهم، وازدادت الكنيسة قوة وصمودًا، وسرت فى المسيحيين نشوة الشهادة والبطولة والإصرار على العقيدة. وإزاء ذلك قرر وقف الاضطهاد والمذابح ضدهم لعدم جدواها، ولأنها أثرت فى بث دعائم الاضمحلال والانهيار فى جسم الإمبراطورية، وأدت إلى تعطيل مصادر الدخل فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة، وتدهور الحياة الاجتماعية وتفككها، وانتشار المجاعات بين الطبقات الدنيا[١] والشعور بوخز الضمير لدى بعض الطبقات.

أمام ذلك أحس «جاليريوس» بعقدة الذنب تجاه المسيحيين، وأن الوقت قد حان للتكفير عن الذنوب ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه، واسترضاء الرب فى تلك المرحلة الحرجة من الحياة، ومن ثم فإنه أصدر قرار التسامح مع المسيحيين.

مرسوم جاليريوس للتسامح

(Edict of Toleration)

ففى عام ٣١١ م[٢] أصدر «جاليريوس» قراره الشهير للتسامح الدين (Edict of Toleration) وهو يحمل اسمه، واسمى ليكينيوس، وقسطنطينوس، وتضمنت ديباجته الألقاب الإمبراطورية، ثم جاء بعد ذلك[٣]:

«كان من شأن المهام الخطيرة التى تشغل أذهاننا، من أجل مصلحة الإمبراطورية والحفاظ عليها، أن اتجهت إرادتنا إلى تصحيح كل الأوضاع، وإعادة بنائها، وفقاً للقوانين القديمة، والنظام العام عند الرومان. وإنا لشديدو الرغبة، بصفة خاصة،

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٢) يدخل هذا التاريخ ضمن فترة تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، والذى يبدأ ببداية القرن الرابع الميلادى. بيد أن مؤثرات نهاية القرن الثالث لايمكن تجزئتها عن بداية القرن الرابع ـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد عرفت فترة تاريخ روما حتى سقوطها عام ٤٧٦ م على يد الجرمان بأنها تقع ضمن الفترة الخاصة بدراسة تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وهى تتبع التخصص الدقيق للتاريخ القديم اليونانى الرومانى.

(٣) راجع: جيبون (المرجع السابق). ص ٤٧٩، ص ٤٨٠، يوسابيوس القيصرى «تاريخ الكنيسة» ك ٨ ف ٧. ص ٤٢١ ـ ٤٢٣، إسحاق عبيد «الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية» ١٩٧٢، ص ٥٣.

في أن نهدى إلى طريق العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المضلين الذين نبذوا الديانة والطقوس التى شرعها آباؤهم، والذين تبجحوا فازدروا شعائر الأقدمين، ومن ثم ابتدعوا قوانين وآراء متطرفة، أملاها عليهم خيالهم، وشكلوا مجتمعاً متعدد الألوان فى مختلف أرجاء الإمبراطورية، ولما كانت المراسيم التى أصدرناها لفرض عبادة الآلهة قد عرضت كثيرين من المسيحيين للخطر والكروب، فقضى الكثيرون نحبهم، على حين ظل عدد أكبر سادرين فى حماقتهم الملحدة، حيث جُردوا من الحق فى الممارسة العلنية للدين، فإن إرادتنا اتجهت إلى أن نبسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد التعساء، ولذلك نرخص لهم فى إعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة، وفى عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو إزعاج، شريطة أن يُظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة، ولسوف نوضح مقاصدنا للقضاة والحكام، فى مرسوم آخر. وإنا نأمل أن يحفز تسامحنا المسيحيين إلى الصلاة والتضرع إلى الإلـه الذى يعبدون، من أجل سلامتنا ورخائنا، وسلامتهم ورخائهم هم أنفسهم، وسلامة الجمهورية ورخائها».

ويبدو أن مرسوم «جاليريوس» كان على الأقل صورة صادقة لشعور الإمبراطور المحتضر، والذى كان بمثابة تعهد بإخلاصه - كوأن توقيع «جاليريوس» على مرسوم التسامح هذا كان على يقين بمدى مسايرة «ليكينيوس» لنزعات صديقه الحميم، وأن أى خطوة فى صالح المسيحية كانت ستحظى برضاء قنسطنطينوس[1]. أما الإمبراطور «ماكسيميانوس» فقد كانت اتجاهاته واضحة، بحيث أن «جاليريوس» لم يكن ليجرؤ على وضع اسمه فى ديباجة المرسوم، ومما يجدر بالملاحظة أن ماكسيميانوس قد تولى بعد ذلك بأيام قلائل حكم ولايات آسيا، وفى الشهور الستة الأولى من حكمه تظاهر بالتزامه بالنصائح الحكيمة لسلفه، وتجلى ذلك من خلال توجيهات رئيس حرسه «سابينوس»، الذى أصدر توجيهات عديدة إلى الولاة والحكام فى الولايات يحثهم على غض الطرف عن محاكمة وعقاب الأساقفة وإطلاق سراح المسجونين المسيحيين.

بيد أن ذلك الاستقرار والسلام لم يدم طويلاً - حيث أن الخرافة (العقيدة) والقسوة كانتا كامنتين فى شخصية «ماكسيميانوس»، الذى كان مثابراً على عبادة الآلهة ودراسة السحر، والإيمان بالوحي، ومجالسة الفلاسفة الذين أثروا عليه وأقنعوه بأن المسيحيين

(١) Cf., Hardy (E.G.), Christianity and the Government, 1906, pp. 66 ff.

مدينون بانتصاراتهم إلى نظامهم الدقيق، وأن ضعف المشركين ناتج عن افتقارهم إلى وحدة رجال الدين وأحكام الرياسة والتدرج بينهم. وإزاء ذلك فقد أمر «ماكسيميانوس» بإصلاح المعابد وتجميلها فى كل المدن الكبيرة فى أنحاء الإمبراطورية، وفرض سطوته على الكهنة القائمين على خدمة مختلف الآلهة[١]. وبتأثير الحكام وتأثير هذا النظام الكهنوتى وصلت رسائل كثيرة إلى الإمبراطور تنم عن الطاعة، وخاصة من مدن «نيقوميديا، وأنطاكية، وصور» ـ وهي تستحث وتلتمس من الامبراطور أن يلجأ إلي قوانين العدالة، وإبعاد المسيحيين إلى خارج بلادهم. ولنا أن نتصور مدى صور الاضطهاد والتعسف التى عانى منها المسيحيون، خاصة فى آسيا الصغرى، أمام جبروت وقسوة حاكم عنيد متعصب، دبَّرَ كل صنوف الغدر والعنف بمثل هذه السياسة المقصودة والمدبرة.

موقف قنسطنطينوس من المسيحية:

ويبدو أن قنسطنطينوس قد أحس بمدى ما حققه من نجاح بعد جولاته فى الصراع مع المنافسين، وأنه يجب تحقيق كسب كبير بضم المسيحيين إلى جانبه، خاصة بعد تلك النبوءة المبشرة بالنصر ـ والتى اتسعت رؤيتها بعد رواية «لاكتانتيوس ـ Lactantius»[٢]، ومضمونها أن قنسطنطينوس قد أتاه الهاتف ليلة المعركة (جسر ميلفيا Milvia) طالباً منه أن يأمر جنوده بأن يكتبوا على دروعهم الحرفين الأولين من اسم السيد المسيح (خريستوس ـ Christos)[٣]. وقد أشار «يوسيبيوس ـ Eusébius»[٤] بأن قنسطنطينوس قد روى له أنه شاهد قبيل المعركة علامة الصليب رمز المسيحية تُرْسَم عبر الشمس فى سماء روما عام ٣١٢ م، ومن تحتها عبارة "entoute nike" أى بهذا سوف تنتصر[٥]. وخاض المعركة باسم الصليب، حيث حاصرت قواته ببسالة «ماكسنتيوس Maxentius» أمام التيبر، ثم دخل روما بعد ذلك فى اليوم الثانى منتصراً ليستعرض قواته، ويعرض أحد

(١) جيبون (المرجع السابق). ص ٤٨١.

(٢) Lactantius, De mortibus persectorum, in P.L., Vol. VII; Cf., Moreau (J), De la Mort des Persécuy-teurs, Sources Chretiennes, 30 (1965); Wolsok (A), Laktaniz Und die Philosophische Gnosis, 1960.

(٣) Cam. med. Hist., vol. I, pp 5, 6.

(٤) For Eusebius as a historian, See: Laqueur (R), Eusebius als Historiker seiner Zeit, 1929.

(٥) Castritius (H), Studien Zur Maximinus Daia (M. Lassleben), 1969, pp. 12 ff.

ضباطه رأس «ماكسنتيوس» معلقة على عربة وسط هتاف الجماهير بحياة المحرر والمنقذ قسطنطينوس(١)، ثم مباركة السناتو له، وإعلان شرعيته وسلطانه المطلق على كافة ولايات الإمبراطورية(٢).

ولنا أن نتصور شعور المسيحيين إزاء تلك الانتصارات المبجلة بفضل الصليب ـ وتلك الأحاسيس الفياضة والشعارات الجامحة والشموخ بفضل قوة الصليب "Mente magnitu-dine" النابعة من وحى الرب "Instinctus divininitatis"، وهذا ما أعلنه قسطنطينوس بالفعل نحو فضل المسيح ووقوفه إلى جانبه(٣).

وبرغم ذلك فإن قسطنطينوس قد استمر فى احترام الديانات الأخرى الوثنية، وخاصة أنه كان الكاهن الأعظم لها (Pontifex Maximus)، وأنه بنى قوس النصر لرب الشمس، وسك صور الآلهة الوثنية على النقود، وأصبح يعمل على تقارب جميع المذاهب الدينية لتقف خلفه فى صراعاته. ولنا أن نتصور شعور الوثنية من مواقف قسطنطينوس المسيحية، فقد كان بمثابة الخارج عن جلد أجداده برداء جديد غير مناسب(٤).

ويبدو أن الأوضاع والأحداث قد أملت على «قسطنطينوس» خطا ثابتاً نحو المسيحية، والارتكاز على سياسة دينية قوية، تمثلت فى مؤثراتها فى المنطقة. وأن موقف المسيحيين من قسطنطينوس أصبح يمثل الحليف القوى لكل من الطرفين، ومن ثم فقد كان من الأوفق تقديم المزيد من الطرفين للتقارب الأقوى. ولذلك أصدر «قسطنطينوس» بصفته الأغسطس الأعلى بين أقرانه أوامره إلى «ماكسيميانوس دايا» بوقف اضطهاد المسيحيين فى الشرق الأوسط ـ ثم أصدر أمراً فى عام ٣١٣ إلى حاكم ولاية إفريقيا بإصلاح الكنائس المهدمة، ومساعدة أسقف قرطاجة «كايكيليانوس Caecilianus» بالأموال اللازمة لتوزيعها على كهنة الكنيسة الأرثوذكسية فى شمال إفريقيا (نوميديا ـ وموريتانيا)، وإعفاء الكهنة من الضرائب وكافة الأعمال والمناصب الإلزامية(٥).

(١) CF., Vasiliev, OP. Cit., Tome 6, p. 61; Eusebius, Vita Constantini.

راجع: سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٢٧.

< in hoc signo Vinces >

(٢) Cf., Eadie (J.W.) The Conversion of Constantine (European Problem Studles), New York, and Winston 1971, pp. 35 ff.

(٣) Cf., Ostrogorsky, (T). History of the Byzantine State, London1952, p. 43.

(٤) Cf., Eadie (J.W), op. cit., pp. 22 ff.

(٥) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٣٤ ـ كذلك راجع:

- Cloeman - Norton (P.R.), Roman State and Christian Church, 1966, pp. 117 ff.

وتبعاً لذلك كان لزاماً على قسطنطينوس احتضان هذه الطبقة العريضة وضمها بصفة دائمة إلى جانبه دون أية قلاقل أو أى شعور من عدم الاطمئنان الذى كان صفة راسخة فى نفسية كل مسيحى. وأنه برغم ميول قسطنطينوس الظاهرة إلى إيمانه العميق بالمسيحية فإن دوافعه غير المباشرة فى السيطرة والاستقلال بالسلطة كانت العامل الأساسى فى مواقفه من المسيحية. ويميل المحدثون من البروتستانت والفلاسفة إلى الاعتقاد بأن قسطنطينوس، فى روايته عن تحوله إلى المسيحية كان مسوقاً بوازع من مصلحته، وأنه قد استخدم مذابح الكنيسة بمثابة سلم مناسب يرقى عن طريقه إلى عرش الإمبراطورية فى إطار أمنى شامل. والواقع أنه يصعب الجزم إذا ما كان للدافع الدينى صفة مؤثرة على تصرفاته[١]. بيد أنه لا يمكن إغفال أثر أحداث الفترة الأخيرة من القرن الثالث على تطور العلاقات الرومانية المسيحية.

مرسوم ميلان

(Edict of Milan)

نقطة التحول فى العلاقات الرومانية المسيحية

يُعَدُّ الإقرار العام للمسيحية (مرسوم ميلان عام ٣١٣) الذى أصدره قسطنطينوس بجعل المسيحية ديانة شرعية (Religio Licota) من أهم أحداث تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وتاريخ أوربا خلال تلك الفترة، ولا يزال جزء كبير من العالم محتفظاً بالأثر العميق الذى أحدثه تحول هذا العاهل الكبير إلى المسيحية[٢].

ولا شك أن ذلك المرسوم (Edict of Milan) كان حلقة الوصل بين مرحلتين غاية فى الأهمية، تتصل إحداهما بقسطنطينوس نفسه والإمبراطورية، وتتصل الأخرى بالمسيحية[٣]. ذلك أن المرحلة الأولى تمثل الفترة الأولى من حكم قسطنطينوس قبل الاعتراف بالمسيحية بمقتضى (مرسوم ميلان)، وهذه الفترة تعكس صورة واضحة لمدى الاضطرابات والصراعات الدموية وعدم الاستقرار فى الحكم الذى كان قسطنطينوس يسعى إلى توطيده. أما الفترة الثانية فهى تتسم بروح الاستقرار والطمأنينة التى عمت أرجاء الإمبراطورية بعد استقرار الحكم تحت سلطة قسطنطينوس المطلقة دون منافس. مدعماً بقوى عريضة من الشعب تجلت فى جمهرة المسيحيين.

(١) جيبون (المرجع السابق) ص ٥٨٢.

(٢) Baynes (N.H.), Constantine the Great and the Christian Church, 1929, pp. 3 ff.

(٣) عن نص مرسوم ميلان راجع: «يوسابيوس القيصرى» تاريخ الكنيسة ـ ك ١٠ ف ٥ ص ٤٩٧ ـ ٥٠٠.

وقد شهدت المرحلة الثانية تطور مركز المسيحية من فترة الاضطهاد والتعذيب على يدى دقلديانوس وجاليريوس إلى فترة الاعتراف والظهور والاستقرار والبقاء التى لم تجدها المسيحية فى أية فترة سابقة. ويكفى أن نشير إلى أن قسطنطينوس بقرار الاعتراف (مرسوم ميلان) قد أعاد إلى المسيحية روحها المفقودة ـ وأنه باعتناقه لها كان الركيزة التى وطدت أركان هذه الديانة[١].

ونستعرض فيما يلى ما ورد فى نص «مرسوم ميلان» الاعتراف بالديانة المسيحية، وهو الذى تضمنه الخطاب الذى أرسله قسطنطينوس إلى حاكم «نيقوميديا»[٢]:

«لقد كان رأينا منذ وقت بعيد ألاَّ تُنْكَر الحرية الدينية على أحد، بل كنا نهدف إلى أن نضمن لكل فرد الحق فى ممارسة عقيدته التى يختارها، ولقد سبق أن أصدرنا قراراً يكفل للمسيحيين وغير المسيحيين التمتع بمعتقداتهم الدينية وبعبادتهم، غير أن الشروط الكثيرة التى رهن بها التمتع بالحرية الدينية عند إصدار هذا القرار لم تمكن البعض من التمتع بالحرية الدينية كما ينبغى.

«وبناء علي ذلك فإنه من حُسن الطالع عندما وصلنا ـ نحن قسطنطينوس أغسطس ونحن ليكينيوس[٣] أغسطس ـ إلى مدينة ميلان، ورحنا نتدارس سائر الأمور المتصلة بصالح الرعية ونفعها، كان من بين الإجراءات الأخرى التى قصد بها الصالح العام، أو بالأحري من المسائل الحيوية التى استوجبت الأولوية فى العناية قرارنا هذا بإرساء قواعد تؤكد وتضمن الاحترام والتبجيل للرب: بمعنى أن يُعْطَى المسيحيون وغيرهم الحرية فى العبادة التى تروقهم، لعلنا بهذا والرعية التى نحكمها نحظى بفضل ومحبّة القوى الربانية والسلطات السماوية الأخرى، وهذا هو القرار الذى توصلنا إليه بعد تمحيص ودراسة، وغايتنا أن يهبنا الرب غياته وعطفه الشاملين مثلما أعطانا من قبل.

«لقد وجدنا من الضرورى أن نرسل مرسوماً يوضح هذا القرار إليكم حتى نؤكد لكم فيه أمرنا بإلغاء ما ورد من شروط فى المرسوم السابق بخصوص المسيحيين.

(١) Jones, Later Rom, Emp., pp. 22 ff.
(٢) راجع: إسحاق عبيد (المرجع السابق). ص ٥٧ ـ ٥٩.
(٣) عن «ليكينيوس ـ Licinius» راجع:
- Cf., Brunn (P.M.), R.I.C., VII, 64 ff.

هذا وعليكم مراعاة إلغاء كل التحفظات السابقة التى لم يكن لها من مبرر، والتى لا تتفق وروحنا المشبعة بالرحمة. والآن فإنه يتحتم أن يتمكن كل واحد (فرد) له الرغبة فى اتباع تعاليم المسيحية وطقوسها من ممارسة هذا الحق كاملاً، دون تدخل يعوقه من تحقيق مراده هذا. كل هذه الأمور نحن نبسطها أمامكم لتتبصروا تماماً، ولكى يتأكد لكم بصفة حاسمة أننا قد منحنا المسيحيين سابقى الذكر ترخيصاً مطلقاً فى أن يمارسوا عاداتهم فى حرية تامة. ولا يخفي على فخامتكم أننا بمنحنا هذا الحق على إطلاقه فإننا نسمح لمن يشاء من الرعية أن يمارس نوع العبادة التى يرتضيها لنفسه، وهذا حق خليق بسمات عهدنا الميمون الذى يسود فيه الاطمئنان. ولا يعنى هذا أننا نقلل من شأن أية طقوس أخرى وعبادات أخرى.

«وبالنسبة للمسيحيين فإننا نضيف القرار الآتى:

«كنا قد حددنا فى الرسالة السابقة إليكم تعليمات خاصة فيما يتصل بأماكن العبادة المسيحية، والتى اعتادوا على الاجتماع فيها، والآن فإننا نقرر أنه إذا اتضح أن أحداً ما قد اشترى أماكن العبادة هذه - فى شكل أو آخر - بمال دفع من خزانتنا أو من مصدر آخر، فإن عليه المبادرة بإرجاع هذه الكنائس إلى المسيحيين بدون أن يتقاضى مالاً عنها وبدون أن يطالب بأية تعويضات. وهذا أمر لا نريد فيه إهمالا ولا إمهالاً، وإن كان أحد ما قد حصل على كنيسة من هذه الكنائس بصفة الهدية أو الهبة فعليه إرجاعها إلى المسيحيين بدون تباطؤ. وإذا رغب هؤلاء النفر من الناس فى المطالبة بتعويض فعليهم أن يلتمسوا هذا من أبواب كرمنا الإمبراطورى: بأن يتقدموا إلى قضاة وحكام مناطقهم، وسوف نجزيهم بكرمنا خيراً.

«وعلى فخامتكم أن تتصرفوا فى همة زائدة وفورية لكى تسلم هذه الممتلكات جميعاً إلى المسيحيين بدون إبطاء. ولما كانت للمسيحيين إلى جانب كنائسهم أماكن أخرى موقوفة على الجماعة المسيحية كجمعية هنا وهناك، فإن هذه الممتلكات أيضاً يجب أن تُعاد إليهم، ويطبق فى صددها نفس القانون السابق ذكره. وهذا أمر لا يحتاج إلى مماطلة أو مجادلة. وتنحسب مسألة التعويض سالفة الذكر على هذا البند أيضاً.

«ونحن نحثكم على أن تبذلوا كل ما فى وسعكم من طاقة وهمة لتنفيذ كل هذه الأوامر فى أسرع وقت ممكن حتى يتعرف الناس على كرم قراراتنا، فتوطد دعائم السلام والأمن للرعية جميعاً، ذلك لأنه علي ثقل هذا القرار وبحسن نوايانا كانت العناية الربانية معنا دوماً، ونأمل فى أنها ستظل كما كانت من قبل إلى الأبد، ولكى يصل هذا القرار إلى آذان الكل فإنه يحسن بفخامتكم نشر ما جاء فيه ليذاع على الرعية ويصل إلى كل المواطنين».

وبمقارنة نص جاليريوس الذى صدر فى سنة ٣١١ بهذا النص الذى أصدره قسطنطينوس من ميلان فى عام ٣١٣ يتضح لنا الفارق الكبير بين المرسومين. ولا يخفى أن قسطنطينوس يهاجم جاليريوس - فى مرسوم ميلان - هجوماص عنيفاً وينتقده فى مرارة بالغة بسبب الشروط القاسية التى وضعها جاليريوس عند سماحه للمسيحيين بممارسة شعائرهم، ولهذا كان إصرار قسطنطينوس فى رسالته إلى حاكم نيقوميديا على إلغاء كل ما ورد فى مرسوم جاليريوس من شروط مجحفة - برغم أن اسمه قد اقترن به - وإنْ كان ذلك ينم عَمَّا كان يخفيه قسطنطينوس من بُعد نظر سياسى.

ولقد تطور إيمان قسطنطينوس بشرعية المسيحية إلى درجة اعترافه بحق الكنيسة فى البقاء كشريك مسئول معه فى حكم الإمبراطورية، وقام بمنح المسيحيين المزيد من الامتيازات والإعفاءات، وأقر تشريعات الكنيسة كقانون إجبارى، حيث اعترف عام ٣١٨ م بشرعية الأحكام التى تصدرها محاكم الأساقفة فى وراثة ممتلكات الشهداء بشرط ألاَّ يكونوا قد كتبوا وصاياهم لغير الكنيسة[١].

وأعلن قسطنطينوس أن يوم الأحد هو يوم الرب، بمعنى اعتباره عطلة لكل أجهزة الدولة المختلفة من مصانع ومحاكم وإدارات[٢]. كما اختار شعاراً لدولته الصليب الجديد (Labarum) الذى يحمل حرفى كلمة المسيح «خريستوس - Christus»[٣] وكان

(١) سيد أحمد الناصرى (المرجع السابق). ص ٤٣٧ - كذلك راجع:

- Eadis (J.W.), op. cit., pp. 35 ff.

(٢) Jones (A.H.M.), Constantine and the Conversion of Europe, 1948, pp. 61 ff.

(٣) كان اختيار قسطنطين ليوم الأحد « dies Soils » الذى هو رب الشمس مرضياً لكل من المسيحيين وعباد رب الشمس - راجع:

- Mestin (R), Le fête des Kalends de Janvier dans L'Empire Romain Etudes d'un rituel de nouvel an (Coll. Latomus Vol. 115), Bruxelles, 1970.

لذلك كله أثره الإيجابى لتوطيد أركان العقيدة المسيحية بين معتنقيها. وقد بدأت مراحل التعمق المذهبى بحيث أخذت الكنيسة تشهد صراعاً عقائديا كاد أن يهدد كيانها، وهو الذى انحصر بعد ذلك فى أقطاب هذا الصراع بين المذهب «الأريوسى»(١) ـ والمذهب «الاثناسى»(٢) لتحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله والأب(٣). والتزاماً بموضوع البحث لا سبيل فى هذا المقام إلى تناول الصراع العقائدى.

* * *

(١) عن المذهب الأريوسى وانتشاره ـ راجع:

- Cf., Meslin (M), Les Ariens, L'occident (335 - 530), Paris Ed. du Seuil 1967.

(٢) Cam. Med. Hist., 1, p. 10.

(٣) راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور «تاريخ أوربا فى العصور الوسطى» ـ القاهرة ١٩٧٢ ـ ص ٤٩ ـ ٣ حيث قدم شرحاً وافياً لهذه المسألة.

المصادر والمراجع

(أ) المصادر الأصلية :

- CICERO. Orations - De Haruspicum Responso. 37.

- EUSEBIUS, Vita Constantini (Ecclesiastical History), Loels Classics.

- JOSEPHUS, Antiq. Jud., X, (Loeb. Class) Trans. by R. Marcus.

- SUETONIUS, Nero, 31 (Loeb. Class) Trans. by J. C. Rolfe.

- TACITUS, Annales. XV (Vol. V, Loeb. Class).

(ب) المراجع الأجنبية :

- BAYNES (N.H), Constantine the Great and the Christian Church, 1929.

- BERSANETTI (G. M), Studi Sul imperatore Massimino Trace 1940.

- BIRLEY (A), Marcus Aurelius, 1966.

- BLAKENEY (E. H), Epitome, 1950.

- BRANDT (S), and Laubmann (G), Corpus Inscriptionum Ecclesiasticorum Latinarum 1866 ff, XIX, XXVII.

- CARDINI (M. T), I Pitagorici (1958).

- CARY (M), A History of Rome down to the Reign of Constantine, London 1938.

- CASTRITIUS (H), Studien Zur Maximinus Daia (M. Lassleben) 1969.

- CLAY (M), La Religion Romaine, Paris. 1971.

- COLEMAN - NORTON (P. R), Roman State and Christian Church, 1966.

- COSTA (C), Ruggiero Di Zionario Epigrafico di antichita romana, 1886.

- DECKER (D), LaPolitique Religieuse de Maxence, Byzantine, XXX, A III 1968.

- DIEHLE (C), Constantinople, 1924.

- EADIE (J. W), The Conversion of Constantine, E. P. S., 1971.

- ENSSLIN (W), P. W., Valerius. - Zur, Ostpolitik des Kaisers Diokletian, 1924.

- FERRERO (G), La Ruine de la Civvilization Antique Paris 1921.

- FREND (W. H. C), Martyrdom and Persecution in the Early Church, London 1965.

- FRANK (E), Plato Und die Sogenannten Pythagorer, 1923.

- FRITZ (K), Pythagorean Politics in Southern Italy, 1940.

- GLOVER (T. R), The Conflict of Religions in early Roman Empire, 9th ed., London 1920.

- HARDY (E. G), Christianity and Roman Government 1906.

- HENZEN (W), Acta Fratrum Arvalium, 1974.

- HERCHER (R), Epistolographi, 601 (Pythagoreorum Epistola).

- HOMO (L), Essai Sur le regne de L'empereur Aurelian, Paris 1904.

- JONES (A. H. M), Constantine and the Conversion of Europe, 1948

- ——— The Decline of Ancient Rome, Longmans 1966.

- ——— And Martindale (J), and Morris (J), The Prosopography of the Later ——— Roman Empire, Vol. 1, (A. D. 260 - 385), Cambridge University, Press 1971.

- LACTANTIUS, De Mortibus persectorum, in (Migne, Patrologiae Cursus, Series Latina), Vol., VII.

- MESTIN (R), La fête des Kalends de Janvier dans L'Empire Romain Etudes d'un rit. el de mouvel an (Coll, Latomus Vol. 115), Bruxelles, 1907.

- MORREAU (J), De la Mort des Persécteurs, Sources Chrétiennes, 30 (1965).

- MULLACH (F. A. W), Fragmenta Philosophorum Graecorum I, 485 - 509.

- OLMSTEAD (A. T), Classical Philology, 1942.

- OSTROGORSKY (T), A History of the Byzantine State, London 1952.

- PARAIN (C), Marc. Aurèle, 1957.

- PIAGANIAL (A), Histoire de Rome 1962.

- ———— (A), L'Empereur Constantin, 1932.

- PREAUX (C), Chron, d'Eg., 14 (1939), pp. 180 ff.

- PUECH (H. C), Manichaismus (1961), E. T., 1965.

- RAMSAY (W. M), The Church in the Roman Empire before 170, London 1906.

- REMONDON (R), La Crise du Mond Romain de Mar. Aurele à Anstàse, 2nd. Ed., Paris 1970.

- ROSTOVIZEFF (M), A History of the Ancient World, Vol. 2, Oxford 1953.

- SESTON (W), La Tetrarchie, 1946.

- SMALLWOOD (E. M), Journal of Theological Studies 1959.

- SORDI (M), The Christians and the Roman Empire, London 1994.

- STADE (K), Der Politiker Diokletian Und die Litzte Grobe Christenver Polgund, 1929.

- TCHERIKOVER (U), The Jews in Egypt in the Hellenistic - Roman Age in the Light of the Papyri, Jerusalem 1945.

- THOMPSON (L. S), The Middle Ages, Vol. 1.

- TOWNSEND (P. W), Yale Classical Studies, 1955.

- VASILIEV (C), Histoire de L'Empire Byzantine, Tome 1, 1932.

- VITUCCI (G), L'imperatore Probo, 1952.

- VOGT (J), The Decline of Rome, 1967.

- WALSER (G) and Pekary (th), Die Krise des Romischen Reiches, 1962.

- WEBB (P. H), Reign and Coins of Carausius, 1907.

- WLOSOK (A), Laktanz und die Philosophische Gnosis, 1960.

(جـ) الدوريات:

- C.I.L., = Corpus Inscriptionum Latinarum, 1863 -

- C. Ph., = Classical Philology, 1906 -

- J. R. S., = Journal of Roman Studies, 1911 -

- J. T. S., = Journal of Theological Studies, 1899 -

- Y. C. S., = Yale Classical Studies, 1920 -

(د) المراجع العربية:

١ ـ إسحاق عبيد: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ١٩٧٢.

٢ ـ جيبون (إدوارد): اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ـ ثلاثة أجزاء، ترجمة: محمد على أبو درة.

٣ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٧٢.

٤ ـ سيد أحمد على الناصرى: تاريخ الإمبراطورية الرومانية ـ القاهرة ١٩٨٥.

٥ ـ عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية (فى ضوء الأوراق البردية) القاهرة ١٩٧٤.

٦ ـ يوسابيوس القيصرى: تاريخ الكنيسة ـ ترجمة: القمص مرقص داود ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٧٩.